

لتحويلها الى اقليميات ودويلات، ولم يمتلك قوة المثابرة والنضال لتجسيد الهدف القومي حقيقة واقعة، وظن ان القومية العربية، والوحدة العربية، مجرد شعارات ترفع وهتافات تدوي، لا مسيرة دامية، شائكة، لن يصل فيها الا من امتلك قوة الارادة و ارادة التضحية.

وهكذا، ما ان تعرضت القومية العربية الى نكسة، او نكسات، حتى لجأ بعض القوميين الى اسلوب هروبي الى امام، فحمل الفكر القومي العربي كل اوزار الماضي، ونكسات الحاضر، واعتبر الفكر القومي فكراً قاصراً، عاجزاً، وطالب باسقاطه واسقاط الفئات والطبقات التي تمثله، ورفع رايات الاشتراكية والماركسية، وكأن الفكر يتم بقرار، وكأنه مجرد نظريات وافكار معزولة عن الواقع، واصبح الصراع الطبقي، والثورة الاجتماعية، وتقديس الالفاظ الثورية، وتقسيم المجتمع العربي الى رجعيين وتقدميين، وثوريين ومحافظين، مستسلمين ورافضين، هو الشغل الشاغل لهذه الجماعة.

ولكن هل يحل تغيير الولاء الفكري المشكل؟ وهل مجرد رفع رايات الماركسية والتغني بالاشتراكية سينقل العرب من حال الى حال؟

بالطبع لا. والخلل لا يكمن، هنا، في الاشتراكية، او الماركسية، كما انه لم يكمن في القومية العربية؛ انما الخلل والعلة هما في من يتعامل مع هذه الايديولوجيات، تعاملأ فوقيأ. فالماركسية والاشتراكية، وكذلك القومية، كلها ايديولوجيات ونظريات لا يعتمد تبنيها، ورفع يبارقتها، على الرغبة الذاتية، اللهم الا اذا كان الهدف، فقط، ان يقال ان فلانأ، او هذا التنظيم، او ذاك، ماركسي او قومي؛ ولكنها افكار وايديولوجيات ولدتها الحاجة العملية لتغيير الواقع ومواجهة وضع ما والرء عليه لتحويله الى افضل. فهي وجدت، اساسأ، لتتعامل مع حقائق ووقائع مجتمعية. وهي لا تعيش في الخيال، ولكنها تعيش في الواقع، تحتك به من خلال الممارسة اليومية. والواقع هو الحكم لدى مصداقيتها. اما الفكر الذي يقتصر على كونه افكارأ على الورق ونظريات في العقول، فانه لن يؤثر في الواقع ولن يشعر به الا من عشتت هذه الافكار في عقولهم.

من هنا تأتي مهمة المناضل الحقيقي، أقومياً وحدوياً كان ام ماركسياً، في ان يوفق بين المعادلة الصعبة، النظرية والواقع، ولن يتمكن من التصدي لهذه القضية الا من امتلك النفس الثوري الصادق والعزيمة النضالية. انها عملية صعبة حقأ، لان الواقع لا يتكيف دائماً حسب ارادتنا، فهو وصل الى ما وصل اليه بفعل تراكمات تاريخية وموضوعية عبر عشرات ومئات السنين؛ ولا يتغير هذا الواقع بين ليلة وضحاها. ولا نقصد، هنا، تغيير الانظمة السياسية القائمة، فهذا قد يتأتى من طريق انقلاب او ثورة، والانقلاب لا يغير الواقع غالبأ، ولكنه يغير الرموز المعبرة عن هذا الواقع، فتعد بتحسينات وتجميلات، لكنها لا تتصدى لعقم المشكل وجوهره. والثورة ستبقى في مرحلة الثورة، اي انها تبقى تحت التجربة الى ان تثبت مصداقيتها بتفاعلها مع الجماهير، وادخال تحولات جذرية في المجتمع وامتلاك ارادة التحدي والصمود امام كل ما يواجهها من عقبات.

كما ان الواقع وميدان العمل لا يقتصران على ارادتنا فقط، ان ذاتنا لا تتعامل مع ذاتنا فقط، ولكنها تتعامل مع ذوات اخرى، مع خيارات و ارادات تنازعنا البقاء وتنازعنا اهلية التعامل، بل تنازعنا شرعية الوجود؛ فقانون البقاء للاصلح في الطبيعة يعمل، ايضأ، ويطبق في الحياة السياسية والفكرية. والصراع من اجل الوجود بين الافكار والنظريات ملموس وموجود.